الموضوعات الشعرية :

ولقد اتجه شعراء المهجر اتجاهات عديدة، يمكن أن نجملها بما يأتي: الشعر التأملي النفسي، وشعر الطبيعة وشعر الحب والشعر الاجتماعي والإنساني وشعر الحنين والغربة.

1- الشعر التأملي:

ليس شعر التأمل جديداً في شعرنا العربي فقد أثار ابن الرومي وأبو تمام والمتنبي وأبو العلاء المعري في شعرهم مسائل تأملية وقضايا فكرية لا يمكن إغفالها.

إلا أن اتجاه شعر المهجر التأملي أصبح ظاهرة عامة، ربما فاقت كل خواطرهم الشعرية، وكانت الظروف القاسية التي واجهت شعراء المهجر سبباً في بروز هذا ألاتجاه فقد ترك هؤلاء أوطانهم وغادروا أهلهم وأحباءهم و واجهوا بيئة جديدة وظروفاً اقتصادية ونفسية صعبة انعكست في شعرهم حنيناً إلى أهلهم، وحباً إلى أوطانهم فراحوا يعبرون عنها بالمعاني المتناقضة من " يقين وشكٍ، رضى وسخط". وعلى الرغم من أن هذه المعاني قد حققت في شعرهم تجديداً ملحوظاً، إذ جسدت ما كان ينتابهم من قلقٍ واضطراب وحيرة، خصوصاً في المراحل الأولى من حياتهم، وعمقت إحساسهم بالألم وانتهت بكثيرين إلى زعزعة ثقتهم بالحياة والكون.

وضاق بعض شعراء المهجر ذرعاً بواقعه ولم يعد قادراً على العيش فيه، مما جعله يحلم بواقع من صنع الخيال، يحقق له كل ما افتقده في واقعه، ويمكننا أن نجد ذلك

---

(1) الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث : 104

في قصيدة جبران "البلاد المحجوبة" التي يقول فيها:

يا بِلاداً حُجِبَتْ مُنذُ الأَزَلْ كَيفَ نَرجوكِ وَمِن أَيّ سَبيلْ
أَيّ قَفرٍ دونَها أَيّ جَبَل سُورها العالي وَمَن مِنّا الدَّليل
أَسرابٌ أَنتِ؟ أَم أَنتِ الأَمَل؟ في نُفوسٍ تَتَمَنّى المُستَحيل
يا بِلادَ الفِكرِ يا مَهدَ الأُلى عَبدوا الحَقَّ وَصَلّوا لِلجَمال
ما طَلَبناكِ بِرَكبٍ أَو عَلى مَتنِ سُفنٍ أَو بِخَيلٍ وَرِجال
لَستِ في الشَّرقِ وَلا الغَربِ وَلا في جنوبِ الأَرض أَو نَحوَ الشّمال
لَستِ في الجَوِّ وَلا تَحتَ البِحار لَستِ في السَّهلِ وَلا الوَعرِ الحَرج
أَنتِ في الأَرواحِ أَنوارٌ وَنـــــار أَنتِ في صَـــــدري فُؤادٌ يَختَلـــــج

ويبدو من هذه القصيدة أن جبران يتحدث عن مدينة خيالية يمكن لها أن تكون بديلاً عن مدينتة في الواقع، التي لم يعد متصالحاً معها، فهي تمثل نوعاً من التمرد على الواقع، والهروب منه إلى عالم من صنع الخيال يجد فيه كل ما يتمناه في واقعه وما يحلم به من آمال وأماني، غير أن هذه البلاد التي يحلم بها لم يجد الشاعر سبيلاً للوصول إليها، أو معرفة حقيقتها ومكان وجودها خلف أي صحراء وأي جبل يحيط بأسوارها، ونجد الشاعر يميط اللثام عن" رموزه، ويزيل الضباب عن مراميه ومقاصده، فإذا هي مدينة فكرٍ يعشقها أولئك الذين عبدوا الجمال ممثلاً في الحقائق الصافية الخالية من الزيف، وهي مدينة موقعها الحقيقي في الأرواح والصدور والقلوب، وهي مدينة أنوار ونور لا مدينة شكوك وظلمة وأسرار وآلام وإحباط".[1]

هذه الروح الشعرية جديدة كل الجدة، وهي الرومانسية الحقة لأنها تعبر عن دخيلة الشاعر وأعماقه وخفايا نفسه ، التي يشوبها الحزن والكآبة من واقعه الجائر وعزلته عن مجتمعه وتفكيره بالهروب من هذا الواقع إلى عالم الأحلام الذي يتمناه في مدينته الخيالية.

---

(1) مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث : 126

ويتجلى شعر التأمل عند المهجريين في القصائد التي تناولت فكرة وحدة الوجود، التي يرى معتنقوها أن الله سبحانه وتعالى يتجلى في مخلوقاته، فيمكن أن يرى الإنسان الخالق في مخلوقاته من حيوان ونبات وجماد بل في كل شيء مجود من مخلوقاته يمكننا أن ندرك وجود الخالق فيه. ويمكننا أن نلمس ذلك في قول شكر الله الجرّ:

وعلام القول إنّ الله قد حجِّبَ عنّـــــــــا
هو في النهر وفي الحقل وفي الغصن تثنّى
هو في البحر وفي الريح وفي الغابة غنّى
هو في الأكوان مذ كانت ، وفينا منذ كنّا

وعلى الرغم من أن العديد من شعرائنا المتصوفين القدامى قد عالجوا هذه الفكرة في شعرهم إلا أنها انقطعت منذ القرن السابع الهجري حيث بلغ أوجها عند محي الدين بن عربي وجلال الدين الرومي، وظلت فكرة وحدة الوجود في الشعر الحديث تطفو على سطح القصيدة لدى الزهاوي والرصافي وغيرهما، إذ لم تشكل ظاهرة شعرية واضحة، حتى تم لها ذلك عند شعراء المهجر، فقد تناولها أكثر من شاعر، فهذا شاعر المهجر الجنوبي نعمة قازان يقول في وحدة الوجود:

رأيت القطرة الصُّغرى تُروِّي غُلّة القفرِ
وحالت بعد ذا نهراً إلى آماله يجري
رأيت الزهرة الزهراء تخطر خطرة العجب
فمن زهر إلى ترب إلى زهر إلى تربِ

أما ميخائيل نعيمة فيناقش هذه الوحدة في تأمل فلسفي عجيب، إذ يرى أن الكائنات تتوحد في حقيقة كليّة واحدة، لأنها جميعاً من صنع الله لذلك نراه يطالع صورة نفسه في كل مظهر من مظاهر الطبيعة التي تحيط به، فالخلق الإنساني كما يراه آية من آيات القدرة الألهية فيقول:

إيه نفسي أنتِ لحنُ فيّ قد رنَّ صــداه
وقّعته يد فنـــانٍ خفـــــــي لا أراه
أنتِ ريحٌ ونسيمٌ أنتِ موجٌ أنتِ بحرُ
أنتِ برقٌ أنت رعدٌ أنتِ ليلٌ أنتِ صبحُ
أنتِ فيضٌ من إله

وقد تكون فلسفة شعراء المهجر أمشاجاً من فلسفة الشرق والغرب ولعل منهم من تأثر بشاعر كأبي العلاء وهو يسأل عما بعد الموت من بعث وحشر، أو بفيلسوف كابن سينا وهو يسأل عن" النفس" تلك الورقاء التي هبطت إلى الإنسان من محلها الأرفع في السماء فلبست جسده، والذي سيدركه البلى والدثور، ثم يعود بعد ذلك إلى "الحمى" أو إلى نار "القرى" التي كان يتطلع إليها الشاعر أبو ماضي ونسيب عريضة ، وإن للشك عند شعراء المهجر أصولاً عند فلاسفة الغرب كما نجد له الأصول ذاتها في شك أبي العلاء المعري فيقول أبو ماضي:

حامتْ على روحي الشكوكُ كأنّها و كأنّهنَّ فريسةٌ و صقورُ
و لقد لجأتُ إلى الرجاءِ فعقّني أما الخيالُ فخائبٌ مدحورُ
يا ليلُ أينَ النورُ ؟ إنّي تائهٌ مُرْ ينبثق ، أم ليس عندك نورُ ؟

وفي ظل هذا الاتجاه التأملي النفسي، بحث شعراء المهجر، خلود النفس الإنسانية التي تفنى بفناء الجسم بعد الموت وبهذا يكون شعرهم، قد أدلى بدلوه بين دلاء الفلاسفة الذين بحثوا خلود النفس في الشعر كابن سينا وغيره، ويقف في مقدمة الشعراء الذين تناولوا في شعرهم موضوع خلود النفس هو الشاعر جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة، فهذا نسيب يخاطب نفسه داعياً إياها إلى أن تفارق جسده لتعود إلى عالمها الأمثل، بعد أن شعر بما استبدت به نفسه من شهوات ولذائذ فيقول:

يا نفسُ أنت لك الخلودْ ومصير جسمي للحودْ
سيعيث عيشك فيه دود فدعي له ما تنخرين
يا نفس هل لكِ في الفصال فالجسم أعياه الوصال
حَمّلته ثقلَ الجبال ورذلته لا تحفلين

وقد عالج جبران في قصيدته "يا نفس" هذه الفكرة، وكذلك فعل ميخائيل نعيمة في العديد من قصائده. وقد تناول شعراء المهجر مسألة الخلود تناولاً مختلفاً، يتوقف على اختلاف مواقفهم من النفس الإنسانية، فجبران يستخدم الأدلة المنطقية ويحمل صوره الشعرية ما يلائم موقفه من مسألة "الخلود"، ونسيب عريضة يضع قضية الخلود موضع الحقائق الثابتة، دونما حاجة إلى إثباتها، وتأكيدها وهكذا راح هؤلاء الشعراء يضربون في أعماق النفس الإنسانية مضارب شتى ويقفون منها مواقف مختلفة، وسعوا إلى أن يجعلوا الشعر وظيفة استكناه النفس الإنسانية، بعد أن كانت تبتعد عن هذا الميدان.

وقد تفنن شعراء المهجر في المعاني التي عالجوا من خلالها النفس الإنسانية، فقد التفتوا إلى الموت لصلته بالنفس الإنسانية، ورأوا فيه خلاصاً من مشكلة الوجود الذي حيرهم، أو العذاب الذي طالما انتابهم، فإذا بهم يهتفون بالموت ويرحبون بمقدمه تماما كما فعل شعراء الديوان، فهذا جبران يرى في الموت خلاصاً وشفاءً مما ينتاب نفسه من حيرة وعذاب وقلق فيقول:

وَالمَوتُ في الأَرضِ لابن الأَرضِ خاتِمَةٌ وَللأَثيريّ فَهوَ البَدءُ وَالظَفَرُ
فَمَن يُعانِقُ في أَحلامِهِ سَحَراً يَبقى وَمَن نامَ كُلَّ اللَّيل يَندَثِرُ
فأفضلُ الناس قُطعانٌ يسير بها صوتُ الرعاةِ ومَنْ لم يمشِ يندثرُ
وَمَن يلازمُ تُرْباً حالَ يَقظَتِهِ يُعانق التُّربَ حَتّى تخمدُ الزُّهرُ
فَالمَوتُ كَالبَحر مَن خَفّت عَناصِرُهُ يَجتازُهُ وَأَخو الأَثقالِ يَنحَدِرُ

أما شاعر الحيرة والقلق دون منازع إيليا أبو ماضي، الذي يعكس ديوانه" الجداول" هذا التيار الحائر، الذي يتأمل في حقيقة خلق الإنسان، وعن وجوده في هذه الحياة، وعن سر مجيئه إلى هذه الدنيا التي فرضت عليه، وما عليه إلا أن يتأقلم مع قوانينها وسننها أن يخضع لإرادتها، وهو في ذلك يثير جملة من التساؤلات التي تعكس قلقه في هذه الحياة التي يلفها الغموض وإن الإنسان لم يعرف من ألغازها إلا النزر القليل وما هذه التساؤلات إلا تعبير عن ذلك فيقول في قصيدة" الطلاسم"

جئتُ ، لا أعلمُ من أين، ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدّامي طريقا فمشيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟
لستُ أدري![1]

وأبرز ما يميز هذه القصيدة كثرة التساؤل الذي يقلب الإحساس على اكثر من وجه وبأكثر من عبارة ... إذ يدور حول جدل فكرة الشك يقدمها بأكثر من وجه، لكن بالمنهج نفسه فيقول:

أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوجودْ
هل أنا حُرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيودْ
أتمنّى أنّني أدري ولكن...
لست أدري!

---

(1) الطلاسم: 139